مقاربة منهجية لرؤية سعيد النورسي

محمد بلبشير

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة تلمسان

يعتبر التراث الأخلاقي حصيلة الجهود المعرفية للثقافة الإنسانية ، فما ترصين القواعد المنطقية وتحكيم البنى الفكرية إلا للتنظير السديد للمسالة الأخلاقية ، وعليه الاهتمام بسؤال الاخلاق مسألة أساسية لأي ثقافة من الثقافات السائدة .

فالبشرية اليوم تعيش اليوم صورا متناقضة من الحياة، بين عظم المعارف المكتسبة وسرعة التطور التكنولوجي من جانب، وازدياد المشاكل النفسية والشقاء المادي، وكثرت المنغصات التي تورث الإنسان الحزن والآلام من جانب آخر.

بينما كان على الجانب الأول تحقيق السعادة والسلامة للإنسان، باستيعاب حقيقة الإنسان والكون وماهيتهما، نجده دفع ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء، فغر رحب الحياة الدنيوية في عروق الإنسان. فأصبح الإنسان فقيرا وفاقدا للأخلاق كما يقول الأستاذ النورسي.

فهذا العصر على ما هو عليه من التقدم قد غشيه من المادة ما غشيه، فذهب منه باللب الخلقي الفردي والجماعي، وترامت به تياراتها إلى أماد بعيدة عن الروح الإنسانية المحضة، فأصبح هيكلا من غير روح تتقاذفه أمواج المادة العتيدة لترمي به إلى محيط الانحلال، بعد أن اختل منه مركز التوازن الخلقي وانهد من حصانته ذلك السد الذي جعلته السنن الإلهية حائلا دون طغيان المادة ومعدلا لمفاعيلها الطاغية، ألا وهو الدين الأقوم، والإيمان بوحدانية الله تعالى وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة.

والإنسان في القرآن الكريم هو مخلوق مكرم، ومن طبيعة خلقه أنه وسط جامع بين عوالم الملكوت الأعلى، وبين أسفل السافلين باعتباره روحا وجسما، فروح الإنسان تنشد الأبدية والخلود، أما المادة « لا يعتد بها فهي في حكم المعدوم، لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة. كما يقول الأستاذ النورسي.

فتركيب الإنسان المادي والروحي له دلالته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة، وتحقيق سعادة الدارين، ولا يكون ذلك إلا بالتوفيق بين مطالب الروح والمادة والتوسط بين جواذبهما، الذي هو نوع الكمال المنشود الموضوع لهذا الإنسان.

كما أن الإيمان هو الركن الأساس الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية الإنسان، وهو العنصر المحرك لعواطفه والموجه لإرادته، ومتىٰ صحت عناصر الإيمان في الإنسان استقامت الأساسيات الكبرىٰ لديه، وكان أطوع للاستقامة علىٰ طريق الخير والرشاد، وأقدر علىٰ التحكم في أخلاقه بما يسعىٰ لتحكيم شرع الله.

فالإيمان التحقيقي كما يسميه النورسي هو الكفيل بتحقيق أعظم ما ينشده الإنسان في حياته وهو السعادة، وبالنظر إلىٰ القاعدة الإيمانية التي أنشأها الإسلام، ـ إجابة عن الأسئلة الإنسانية الكبرىٰ من بينها: من الذي أوجد الإنسان؟ ولماذا خلق؟ وما الغاية التي وجد الإنسان لأجلها...؟ إلىٰ غير ذلك من الأسئلة ـ، يتّضح لنا أنّ الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي خلق الإنسان من العدم، وأن الإنسان خلق لغاية وهي العبادة... وما علىٰ الإنسان إلاّ أن يتبع مجموعة المبادئ التي حددها الله تعالىٰ، وفق معالم الأخلاق السويّة في إطار «الصّراط المستقيم»، توافق تركيبه وماهيّته، بما يـمّكنه من أداء العمل الصالح، بحيث إنّ المقدمة لهذا العمل الصالح هي الإيمان، ومعرفة الإنسان ماهيته وتركيبه، والإقرار بأنه خلق من خالق قدير، وشرع له خُلق لاكتساب معناه الكوني.

من هذا المنطلق نبحث عن فك الشفرة الخُلقية (بضم الخاء) للإنسان، تخرج الإنسانية من مأزقها الذي وقعت فيه، وتوصلها إلىٰ بر الأمان، شفرة خُلقية تعادل شفرته الخَلقية (بفتح الخاء) من حيث الصورة والمعنىٰ، بمعنىٰ فيما خَلق الله عليه الإنسان، وفيما شرع له من خُلق؟ نفك هذه الشفرة وفق الإيـمان بوحدانية الله تعالىٰ وبأنّه خلق الإنسان من العدم وزوده بالطاقات والاستعدادات، لغاية يريدها الله في خلقه إذا ما استقامت خُلقه في الاتجاه الصحيح.

فكيف نفك هذه الشفرة من خلال رسائل النّور؟ وما الركائز الإيمانية التي يبنىٰ عليها الأستاذ النورسي مفهوم الأخلاق ؟ بمعنىٰ ما مفهوم الأخلاق عند الأستاذ النورسي، وفقا للأدلة الإيمانية التي بيّنها الله عز وجل من خلق الإنسان من العدم وأن الإنسان خلق لغاية؟ وما علاقة الأخلاق بالبعد الكوني للإنسان والغاية التعبدية التي خلق من أجلها الإنسان ؟وهل العبادة أخلاق؟، وما علاقة الأخلاق بالإيمان؟ وهل التخلق بالأخلاق الإلهية هو أساس تطبيع صورة الروح الإنسانية بماهيتها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في بساط البحث إن شاء الله.

أوّلا: الأخلاق في ميزان اللّغة والاصطلاح.

أ- في ميزان اللّغة:

الخلق في كلام العرب على ضربين:

أحدهما: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه والآخر التقدير،[1] والعرب تقول: خلقت الأديم إذا قدّرته وقسته لتقطّع منه مزادة أو قربة أو خفّاً.

والخَلق بالفتح يكون المصدر من خَلَقَ الله الأشياء يخلقها خلقا، ومن المجاز أوجده على تقدير أوجبته الحكمة.[2] قال الراغب الأصفهاني: « الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل واحتذاء، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (سورة الأنعام : الآية:1)، أي: أبدعها، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة البقرة :الآية 117)، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (سورة النساء: الآية1)...

والخَلق والخُـلُق في الأصل واحد لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة..»[3] . وقال صاحب اللّسان: « الخِلقة الفطرة، والخُلْق والخُلُق: السّجية... فهو بضم الخاء وسكونها الدين والطبع والسجية، ويفسر ذلك بقوله: «وحقيقته أنّه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة»[4].

والخَلاق: ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه،[5] قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ (سورة البقرة : الآية 102).

والخلاَّق: النصيب في الخير والصلاح، ومن صفات الله، الخالق والخلاّق ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله[6].

مما سبق ذكره يمكننا القول: يدل المدلول اللغوي للأخلاق على ما يلي:

- يدل الخُلق على التصرفات الإنسانيّة الصادرة عن أوصاف النّفس وسجاياها الباطنة.

- للأخلاق جانبين: جانب نفسي باطني، وجانب سلوكي ظاهري.

- يدل الخلق على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة.

- تدل الأخلاق على الصفات الإنسانية المكتسبة.

ب-الأخلاق في ميزان الاصطلاح:

أثارت قضية مصطلح «الأخلاق» آراء وتصورات وتفسيرات كثيرة بين الفلاسفة والعلماء، وجلها قريبة من المعنى اللّغوي؛ إلاّ أنّها تعددت نظرا لتضارب مفهوم الأخلاق بين الاتجاهات والمذاهب، أي حسب تنوع نزعات المفكرين واختلاف الجوانب التيّ يهتمون بها في الأخلاق.

وليس هذا مجال ذكر هذه الآراء والمفاهيم ، فلو تتبعنا ذلك لاتسع بنا البحث وتشعبت مجالاته إنّما غايتنا معرفة الأخلاق عند الأستاذ النورسي.

د- الأخلاق في ميزان النورسي:

لا يمكن تصور حقيقة الأخلاق عند الأستاذ النورسي، والخاصية التي تميّز هذا المفهوم من حيث هو مصطلح كوني، دون معرفة البعد الكوني للإنسان والغايّة التعبديّة التي خلق من أجلها. إذ يرى النورسي أن الإنسان هو ثـمرة شجرة الخلق، والفهرست الكوني الجامع، العاكس الأكمل للأسماء الحسنى، الساعي لتحقيق رغبة البقاء الكامنة في فطرته، المشاهد عبودية الكائنات باستخلافه في الأرض، عبادة كلية لله الواحد الأحد، يقول الأستاذ: « **إنّ الإنسان ثمرة شجرة الخلقة، فهو كالثمرة أبعد شئ عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل**»[7]. ويقول أيضا: « **إنّ الإنسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيواناً من الحيوانات ينطوي على روح غال ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكاراً غير محصورة ويتضمن قوى غير محدودة مع أنّ فطرته عجيبة كأنّه فهرستة للأنواع والعوالم** »[8].

بناء على هذا يمكننا أن نستشف أن النورسي ينظر للإنسان نظرة كونية ،ويرى في ماهيته أنّها « **مَظْهَرٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ تَجَلِّيَاتِ الاَسْمَاءِ الْمُتَجَلِّيَةِ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ** »[9]، كما أنّها « **فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى..ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفاتها الجليلة.. وميزان للعوالم التي في الكون..ولائحة لـمندرجات هذا العالم الكبير..وخريطة لهذا الكون الواسع ..**»[10].

فالإنسان هو وسط جامع بين عوالم الملكوت الأعلى، وبين أسفل السافلين باعتباره روحا وجسما. « **فروح الإنسان تنشد الأبدية والخلود**»[11]. أما المادة « **لا يعتدّ بها فهي في حكم المعدوم،**

لكونها فانية، زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة»[12] .

ولما كانت جواذب كل جاذب من الطبيعة الإنسانية تميل بالإنسان إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، فجانب الروح يميل إلى الخير ويقدم الشكر والحمد على نعم الله التي لا تحصى، وجانب الجسم ينعم بما هو من جنسه من شهوات وملذات، كان لابد من الغوص في أعماق الروح وتنوير مسالكها واستكمال فضائلها.

مما سبق ذكره، ومن استقراء سطور رسائل النور يمكننا القول إنّ الأخلاق عند النورسي هي: « **مجموعة السجايا السامية والخصال الحميدة التي أمر الله سبحانه وتعالى التحلي بها، قصد بلوغ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية ،أي التخلق بالأخلاق الإلهية، والتي تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها،لتنوير مسلكها واكتساب معناها الكوني**»

كما ركب الأستاذ فريد الأنصاري تعريفا آخرا للأخلاق من رسائل النور بقوله هي» **نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة، لاكتساب معناها الكوني»**[13].

من التعريف المقترح للأخلاق عند النورسي ، يمكننا أن نؤكد على علاقة الأخلاق بالطبيعة الإنسانية التي تتضمن البعد المادي والروحي، وليست مجرد مجموعة من الميول والرغبات والغرائز والشهوات، فالأخلاق من هذا المنظور تطلع إلى ما يجب أن يكون، بالتحلي بالسجايا السامية والخصال التي أمر بها الله عز وجل ،كما تأخذ معناها وإلزاميتها بنظام القرآن الكريم مع قراءة القرآن ،قراءة الوحي وقراءة الكون ، أو بالقرآن المقروء والقرآن المنظور بلغة النورسي، ، وهذا بربط الأرض بالسماء وعالم الشهادة بالغيب، فالإنسان في نظر النورسي لا يلتزم بالأخلاق دون أن يعرف وضعيته في الكون. لهذا ذكرنا آنفا أنّنا لا يـمكن تصور مفهوم الأخلاق دون معرفة البعد الكوني للإنسان والغاية التعبدية التي خلق من أجلها الإنسان.

كما أن الأخلاق بدورها تستمد حقيقتها من معنى الوجود وهذا ما جعلها تتميز عن اللحظة التاريخية، فالأخلاق تتجاوز التاريخ نظرا لمصدرها المتعالي، لذلك فهي توجه التاريخ، وهنا تكمن قوة فكر النورسي في معالجته مشكلة الأخلاق، وفي نقده للحضارة الغربية، في شقها الضار، وكيف جنت على الإنسانية من هم وغم وفساد أخلاقي.

وإذا عدنا إلى استعراض تعريف النورسي للأخلاق نجد أنّنا في حاجة إلى بيان البعد الكوني

للإنسان والغاية التي خلق من أجلها. فما البعد الكوني للإنسان، والغاية التي خُلق من أجلها، وما هي الشفرة الخُلُقية التي تعادل الشفرة الخَلْقية من حيث الصورة والمعنى، حتى تكتسب الروح الإنسانية معناها الكوني؟

ثانيا: البعد الكوني للإنسان

لقد كان للإنسان وجود في العالم الإلهي قبل أن يصبح له وجود عيني، ووجوده في علم الله كان يتضمن تفاصيل كيانه، كما كان يتضمن المهمة التي سيعهد إليه القيام بها في الكون، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة:الآية29) وقوله كذلك: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (سورة الإنسان:الآية1).

ولهذا الاعتبار فإن الإنسان سبقت ماهيته في العلم الإلهي، ووجوده العيني في الكون، فليس ذلك الوجود العيني إلا تحقيقا لتلك الماهية فيما كوّن الله من طبيعة، وفيما ينبغي أن ينجز الإنسان من مهمة الخلافة، فالوجود العيني للإنسان كانت نقطة البداية فيه خلق آدم أبي البشر جميعا.

-1 البعد التركيبي للإنسان

ورد في القرآن الكريم بيان طبيعة خلق الإنسان وتركيبه أو تكوينه في نصوص كثيرة، وقد عالج هذا البيان في مرحلتين:

إذ تتعلق المرحلة الأولى بفعل الله تعالى في المادة، وجعلها مستعدة لفيضان الروح عليها، وهو المعروف بالتسوية.

أما المرحلة الثانية فتتعلق بإيجاد الروح، وإفاضتها على هذه المادة المسوّاة لتصير بشرا سوياً، وهو ما عبر عنه بنفخ الروح.

وقد أشار القرآن الكريم، إلى المرحلتين فقال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة ص، الآية: -70 71)، وقال كذلك: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن

طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة السجدة، الآيات: 6 – 8).

فخلق الإنسان بمرحلتي التسوية ونفخ الروح، تعبران عن حقيقة سامية كما يؤكد الأستاذ النورسي في قوله: « **إنّ الله سبحانه وتعالى، القدير على كل شئ، يخلق الأشياء بسهولة مطلقة في سرعة مطلقة دون أية معالجة أو مباشرة، حتى تبدو الأشياء كأنها توجد بمجرد الأمر.**

ثم إن ذلك الصانع الجليل قريب جداً إلى المصنوعات، بينما المصنوعات بعيدة عنه غاية البعد. ثم انه سبحانه مع كبريائه المطلق، لا يدع أحقر الأشياء وأكثرها جزئية وخسّة خارج إتقانه! هذه الحقيقة القرآنية يشهد لها جريان الانتظام الأكمل في الموجودات وبسهولة مطلقة.»[14]، كما يبرز النورسي أن « **حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان في أحسن تقويم، مثلما هو إشارة إلى الصانع سبحانه...**»[15].

فهذا المخلوق كان بشرا بالتسويّة ثم صار إنسانا، فارتفع من مستوى البشريّة إلى مستوى الإنسانيّة الأفضل والأكرم، بما تحلّى وتجمّل به من طبيعة جامعة تسهم في تشكيلها المادة والروح، جعل الصانع هذا المخلوق الضعيف منطوياً على عالم كبير. يقول الأستاذ النورسي: « **إن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيواناً من الحيوانات ينطوي على روح غال ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة ويتضمن قوى غير محدودة مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرستة للأنواع والعوالم.**»[16]، ويقول أيضا في اللمعة الثالثة عشرة: « **كما أن الإنسان عالمٌ صغير، كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثّل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه، فالنماذج المصغّرة في الإنسان لابد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودةٌ في الإنسان الأكبر بالضرورة** »[17].

فالله تعالى خلق الإنسان على أحسن هيئة، وأكمل صورة وجعله «**ثمرة شجرة الخلق، والفهرست الكوني الجامع لجميع تجليات الأسماء المتجلية في جميع الكائنات ،العاكس الأكمل للأسماء الحسنى**»[18]، وهذا دليل على معجزة من معجزات الله تعالى يقول الأستاذ النورسي: « **إن الإنسان السوي الذي هو في أحسن تقويم جامع لمعجزات القدرة الإلهية** »[19]، كما أن خلق الإنسان هو مظهر لتجليات أسماء الله الحسنى، في حقائق عالمي الغيب والشهادة، قال الأستاذ النورسي معبرا عن هذا: « **وكذا في الإنسان نقوش الأسماء الحسنى وتجلياتها، فهو بهذه النقوش والجلوات يشهد على تلك المعاني المقدسة** »[20]، وقال أيضا: « **إن الله سبحانه خلق الإنسان وجعله**

نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالَم المشتمل على ثمانية عشر ألف عالَم، وأودع في جوهره أنموذجا من كل عالَم تجلى فيه اسمٌ من أسمائه تعالى ، ... فإذا صرفَ الإنسان كل ما أُنعمَ عليه إلى ما خُلِقَ لأجله إيفاءً للشكر العرفي يكون الإنسان بروحه وجسمه خلاصةَ عالَمَيْ الغيب والشهادة، ويتجلى فيه ما تجلى فيهما»[21].

وبهذا المعنى فإن الطبيعة الإنسانية في نظر النورسي طبيعة مزدوجة مكونة من حقيقتين مختلفتين: إحداهما روحية سماوية من عند الله، والأخرى مادية أرضية، قبضة من طين ونفخة من روح الله تعالى، وقد نتج عن هذا التركيب مجموعة من الصفات، يرجع بعضها إلى طبيعة التركيب المادي، ويرجع بعضها الآخر إلى طبيعة التركيب الروحي، ويرجع بعضها الثالث إلى خاصية هذا التركيب الذي من خلاله تتحقق طبيعة الإنسان. وبهذا التركيب يتحقق التنسيق بين القوى المادية والروحية في حياة الإنسان وبين النظام المادي و النظام الروحي في حياته الخُلقية، « **فالحق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى، وأبدعه معجزةً دالّة على قدرته المطلقة... وخلقه على صورة خليفة الأرض الذي يملك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى.. فلأجل كل هذا فقد أودع سبحانه في هذا الإنسان فاقةً لا حدّ لها...»**[22].

ومن الأمور المهمة التي نبه إليها النورسي في مسألة خلق الإنسان أن الإنسان خلق ليبقى، لا ليفنى، يقول الأستاذ: « **إن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يخلق لقضاء هذه الحياة المتقلّبة القصيرة، بل خُلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد...»**[23]. ويقول أيضا: « **إنّ روح الإنسان التي تنشد الأبديّة والخلود، وهيّ التي خلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تنهض بهذا الإنسان... فلابد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جدا مرتبطة فطرة بالخلود والبقاء»**[24].

وبهذا فالنورسي يوضح أن الإنسان خلق في أحسن تقويم في خلقه وتركيبه وجماله، ويزيد توضيحا بقوله:» **إن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ورباه أحسن تربية، وزوّده من الأجهزة والأعضاء – كالعقل والقلب – ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها... «**[25].

2 ـ الإنسان بين التكريم والتفضيل والتسخير

خلق الله تعالى الإنسان، وميّزه وفضّله على كثير من خلقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

تَفۡضِيلاً ﴾ (سورة الإسراء، الآية: 70).

ولقد حرص النورسي في رسائله أن يبرز باستمرار ما يتميّز به الإنسان من قيمة رفيعة بمقتضى معنى الإنسانية فيه، يقول الأستاذ النورسي: « **حسبي مَن جعلني إنسانا فأنعم عليّ بنعمة الإنسانية التي صيّرت الإنسان عالماً** ». ويقول كذلك: » **وأكرمنا سبحانه بإنسانية بحيث نتذوق بآلاتها العديدة – كالعقل والقلب– من هدايا غير متناهية لعالم المادة ولعالم المعنى ما نتذوق...** » إلى أن يقول: « **فكأن هذه الكائنات قصر عامر منيف قد زيِّن من لدن الرحمة الواسعة بأنفس الأشياء والموجودات، وسلمت بيد الإنسان مفاتيح خزائنه ومنازله التي لا تعد ولا تحصى، وأودعت في فطرته جميع الاحتياجات والمشاعر اللازمة للاستفادة من كل ما في القصر** ».

فكما «**أن هذا الإنسان مكتوب رباني ذو مغزى عميق، وقصيدة منظومة للقدر الإلهي، كذلك الكائنات قصيدة قدرية منظومة دُبـجت بذلك القلم نفسه، وبمقياس مكبر، فهل يمكن لغير الواحد الأحد أن يتدخل في سكة التوحيد المضروبة على وجه الإنسان والمتوجهة بالعلامات الفارقة إلى ما لا يحد من النّاس، أو أن يتدخل في ختم الوحدانية المضروب على الكائنات الجاعل موجودا تها كلّها متعاونة متكاتفة**».

ويزيد رحمه الله الأمر تفصيلا ليثبت أن الإنسان هو أفضل مخلوق بقوله: « **فما دام الأمر هكذا فان دعاءً للسعادة الأخروية والبقاء والخلود – وهو أفضل دعاء وأعمه ويمس جميع الكائنات ويرتبط بجميع الأسماء الحسنى وبجميع الصفات الجليلة – هذا الدعاء يسأله أفضل مخلوق – وهو الإنسان – ويضمه ضمن ادعيته أعظم عبد وأحبه إلى الله، ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وهو إمام الأنبياء عليهم السلام** » .

كما أنّ للأستاذ النورسي نص بديع في بيان تكريم الإنسان بما سخر له ،وهذا في توضيحه للوجوه الثلاثة العظيمة للآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (سورة البقرة:الآية 29). يقول الأستاذ النورسي: « **إن للإنسان قيّمة عالية بدليل إن السموات والأرض مسخرة لاستفادته، وكذا إن له أهمية عظيمة بدليل إن الله لم يخلق الإنسان للخلق بل خلق الخلق له، وأنّ له عند خالقه لموقعا بدليل أنّ الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر وأوجد البشر لعبادته. فأنتج أنّ الإنسان مستثنى وممتاز...** ».

فتفضيل وتكريم الله الإنسان على سائر المخلوقات، وجعل ما في الكون مسخرا له في فكر النورسي هو تعبير عن اتصال عالم الأفكار بعالم الأشياء، فما دام الإنسان قد وفق إلى معرفة خصائص الأشياء، فلا بد له من معرفة وظائف الأشياء، وكلما زاد فهم الإنسان للأشياء، ازدادت قدرته على توجيه فوائدها بما يحقق أهدافه وغايته من الخلق، لهذا قال النورسي: « **لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر وأوجد البشر لعبادته**».

ويكفي أن نمعن النظر في المثنوي العربي النوري، حتى ندرك صلة التفضيل والتكريم والتسخير الإلهي للإنسان بموقعه في نشاطه الحضاري، بفطنة النورسي حينما ربط التسخير والتكريم بمهمة الإنسان الأرقى وهي العبادة، يقول في هذا الصدد: « **إنّ الإنسان بقوة ضعفه ، وقدرة عجزه أقوى واقدر بمراتبَ، إذ يُسخّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقتدر على عُشر معشاره باقتداره... فيتفوق بالتسخير لا بالغلبة والغصب والجلب. فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرع والعبودية.**».

فالأستاذ النورسي يطلب من الإنسان أن ينظر في الكون بين مسألة الإبداع ومسألة الإيمان، بين التلقي عن الخالق الصانع والولوج في مسالك الطبيعة، بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض، وبين تسخير قوانين الطبيعة لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم الحضاري على المستوى المادي. يقول الأستاذ مخاطبا الإنسان: « **قس بنفسك مدى السعادة السامية، ومدى الشرف العظيم في العبودية لهذا المليك الجليل، والانتساب إليه بالإيمان، والضيافة على مائدة إكرامه وافضاله**».

بيد أنّ الأستاذ النورسي يحذر من الفلسفة الغربية وحضارتها، التي أرهقت الإنسان روحيا وخلقيا نتيجة لإهمالها القراءة الصحيحة للكون،وعدم احترامها قانوني التكريم والتسخير وربطهما بالعبودية، وهذا بقوله: « **فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة - مع محاسنها - عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق ... فضلاً عن إسقاط ـ الكفر ـ تلك الموجودات من مرتبة التوظيف ومنزلة التسخير ومهمة العبودية، فإنه كذلك يُرديها إلى درك العَبَث والمصادفة ولا يرى لها قيمةً ووزناً بما يعتريها من زوالٍ وفراق يبدّلان ويفسّخان بتخريبهما وأضرارهما الموجودات إلى مواد فانية تافهة عقيمة لا أهمية لها ولا جدوى منها. وهو في الوقت نفسه يُنكر الأسماء الإلهية ويتجاهلها، تلك الأسماء التي تتراءى نقوشُها وتجلياتُها وجمالاتُها في مرايا جميع الكائنات**»

فالنورسي يعبر عن أفضل ضمان للاستخدام الأمثل لموجودات الكون، في إطار مفهوم العمل الصالح، وينشأ هذا المفهوم من إدراك الذات الإنسانيّة لمسؤوليتها الأخلاقية في الوجود، وحرصها المستمر على أن يكون إتيانها بالأفعال موافقا للأمر الإلهي والتكليف الرباني، مع توقير الإنسان واحترام كينونته الجامعة، وبالتالي فهو يربط الأخلاق بمعرفة الإنسان غاية وجوده، وإدراك مسؤوليته الأخلاقية في الوجود.

فما علاقة الأخلاق بغاية وجود الإنسان؟

ثالثا: غاية وجود الإنسان والأخلاق

علمنا أن الأستاذ النورسي ينظر إلى الإنسان نظرة كونية راجعة إلى أصل قرآني، باعتباره روحا وجسما، وأن هذا التركيب المادي والروحي له دلالته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة، وفي تحقيق الإيمان، مما جعله مفضلا ومكرما على سائر المخلوقات، فكل ما يدل على هذا الختم الإلهي له نظام خَلقي يحميه، وهو نظام أودعه الله دون تكليف من الإنسان ولا قوة.

فالإنسان بحكم خَلقه له رسالة قبل أن يكون مفضلا ومكرما، وأن رسالته بقدر هذه هي من صميم الأخلاق ،وبقدر ما تحقق له الشخصية الخُلقية، وهذا تبعا لنظام يحكم الخُلق يوافق أو يوازي النظام الخَلقي من التكريم والتمييز والتركيب، وهو محل تكليف بالنسبة إلى الإنسان، وبدون هذا النظام الخُلقي يفقد الإنسان إنسانيته ،أو تنحصر حقيقة الإنسانية عليه بتعبير النورسي، يقول الأستاذ النورسي مخاطبا الإنسان: « **فما غايات حياتك، وما حقوقها؛ إلا إظهارك لآثار تجليات أسمائه، وتشهير غرائبها لدى أنظار المخلوقات.. وما إنسانيتك؛ إلاّ شعورك بهذه الوظيفة. وما إسلاميتك؛ إلا إذعانك بهذه المظهرية** «.

فنعمة الإنسانية ليست نظام خَلقي مادي فقط، كما أنّها ليست نظام خُلقي معنوي، وإنما هما معا، ولذلك قال الأستاذ النورسي: « **وأكرمنا سبحانه بإنسانية بحيث نتذوق بآلاتها العديدة – كالعقل والقلب – من هدايا غير متناهية لعالم المادة ولعالم المعنى ما نتذوق**»».

ولعلّ هذا النّظام الخُلقي الذي كلّف به الإنسان، والذي يوافق أو يوازي النظام الخَلقي للإنسان، يتمثل في الخلافة والعبادة.فحسب الأستاذ النورسي إنّ « **الإنسانية تفوّقت على الأرض والجبال والسماوات بما أخذتْ على عاتقها من الأمانة الكبرى، وفُضّلت على الملائكة وترجّحت عليها، حتّى أصبحت صاحبةَ مرتبةِ خلافة الأرض» كما»أنّ مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازه عليها انما هو لسجاياه السامية، ولأستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية، ولسعة دوائر وجوده**».

أ- العبادة والأخلاق:

يعد وجود الإنسان في نظر النورسي غاية من وجود العالم كلّه، وجميع ما يجري من أحداث قدرها الله تعالى إنما هي لتيسير مهمة الإنسان في وجوده لتحقيق غايته. فالإنسان هو وسيلة وغاية، وسيلة لإعمار الكون، وغايته أن يكون عابدا لله سبحانه وتعالى، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات، الآية: 56).

علق الأستاذ النورسي على هذه الآية الكريمة بقوله: « **يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة: إن حكمة مجئ الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه، هي: معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به، والقيام بعبادته. كما أن وظيفة فطرته، وفريضة ذمَّته، هي: معرفة الله والإيمان به، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً ويقيناً.**».

ومن تمّ فإنّ الغاية من خلق الإنسان كما قدّرها سبحانه وتعالى هي عبادة الله، ورسالته ينبغي أن يقوم بها لتحقيق هذه الغاية، وأداء الأمانة والوفاء بمهام الخلافة، وإنّ هذه الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ليست غريبة عن تكوينه وتركيبه، ولكنها غاية خلقه الله مهديا بطبيعته إلى تحقيقها، وهي هداية بالتسخير والإلهام والفكر، بل إنّ الله عز وجل جعل سعادته في تلك الغاية، وخلق فيه النزوع إلى تلك السعادة الدنيوية والأخروية. يقول الأستاذ النورسي: « **لأن هذا الإنسان، هو سيد الموجودات رغم أنّه صغير جداً، لما يملك من فطرة جامعة شاملة.. فهو قائد الموجودات،و الداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها، لذا فإن له أهمية عظمى.**»ويقول أيضا: « **إنّ مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازه عليها إنّما هو لسجاياه السامية، ولاستعداداته الفطرية الجامعة، ولعبوديته الكلية** «.

كما يؤكد النورسي أنّ العبادة هي أفضل ما تثمره حياة الإنسان، لأنّها من ركائزها الفطرية، يقول: «**إن الخالق الحكيم العليم سبحانه، قد خلق هذا الكون بمثابة شجرة، وجعل أرباب الشعور ثمارها الكاملة، وكرّم الإنسان باعتباره اجمع ثمرة لأرباب المشاعر، وجعل الشكر والعبادة أفضل ما تثمره حياة الإنسان، بل هما - الشكر والعبادة - نتيجة خلقه وغاية فطرته وثمرة حياته** «.

والعبادة في مفهوم النورسي ليست مقصورة على مناسك التعبد (من صلاة، وصوم وزكاة وحج...) ولكنها مفهوم أعمق من ذلك بكثير، إنها العبودية لله وحده، ثم هي الصلة الدائمة بالله ف يكل الأحوال، فالعبادة عنده « **هي حبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن**

المنتهى إلى المبدأ».

فعلى الإنسان أن يسعى إلى الهدف الذي يعينه على تحقيق سبب خلقه، وأن يحيا الحياة التي تساعده على أن يعبد الله، وكل حياة تبعد الإنسان عن تحقيق هذه الغاية هي حياة خاسرة، ثمّ إنّ هناك غاية مثلى ينبغي العمل عليه تحقيقها دائما وهي السعي نحو المثل الأعلى والكمال الذاتي، في مجال العقيدة والعمل والسلوك الأخلاقي، يقول النورسي: «**ومنها: إنّ الإنسان كالشجر الذي علق على ذروته كثير من خطوط الآلة البرقية، قد التفّت على رأسه رؤوس نظامات الخلقة، وامتدت مشرعة إليه قوانين الفطرة، وانعكست متمركزة فيه أشعة النواميس الإلهية في الكائنات. فلابد للبشر أن يتممها ويربطها وينتسب إليها ويتشبث بأذيالها ليسري بالجريان العمومي حتى لا يُزلق ولا يُطرد ولا يُلقى عن ظهر هذه الدواليب المتحركة في الطبقات.وما هي إلاّ بالعبادة التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي.** «

وعليه فكل فعل يتحراه الإنسان ويبتغي به وجه الله تعالى هو عبادة، ومن تمّ فإنّ الحكم الإلهي يحاسب كل فعل من أفعال الإنسان.ويكون الإنسان محقا للعبادة إذا تحرى ذلك الحكم في كل أفعاله « **فالإنسان بمثل هذه العبادة والتفكر يصبح إنسانا حقاً ويُظهر نفسه أنه في «أحسن تقويم» فيصير بيُمن الإيمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض** «.

فالعلاقة بين عبودية الإنسان وربوبية الله تعالى تطبع أفعال الإنسان بصبغة إلهية لها الدور الأساسي في إيصال الإنسان إلى سعادته المرجوة فـ «**بامتثال الأوامر واجتناب النواهي يحصل للإنسان نسبٌ كثيرة إلى مراتب عديدة في الهيئة الاجتماعية، فيصير الشخص كنوع؛ إذ كثير من الأوامر لاسيما التي لها تماس بالشعائر والمصالح العمومية كالخيط الذي نيط به حيثيات ونظُم فيه حقوق، لولاه لتمزقت وتطايرت**».

فحيثية الأمر والنهي غير الحيثية الذاتية للأفعال، وأن الأوامر والنواهي الإلهية تضيف إلى القيمة الذاتية قيمة أخرى سلبية أو إيجابية، هي إما العبودية والطاعة والانقياد لله عز وجل، أو معصية وتجاوز حدوده، يوضح هذا الأستاذ النورسي بقوله: « **إنّ أفعال الإنسان إنّما تصدر عن تمايلات القلب والمشاعر وهي تنبعث من شدة تحسس الروح وحاجتها، والروح إنّما تهتز بنور الإيمان، فإن كان خيراً يفعله الإنسان، وإلاّ يحاول الانسحاب ، وعندئذٍ لا تغلبه النوازع والأحاسيس المادية التي لا ترى العقبى!**».

فالخُلق يكتنف كل أمر إلهي من غير استثناء، ولكل شيء خلقه، أي قواعد ناظمة لأسلوب أدائه وممارسته، وإذا أخذنا الصلاة التي تعتبر أ وكد الأعمال التعبدية في نظر الإسلام، قلنا:

هناك أحكام للصلاة وأخلاق للصلاة.

أما الأحكام: فإقامتها وفرضيتها، والالتزام بها والإخلاص فيها.

وأما الأخلاق: فالقواعد الناظمة لكيفية أداء الأحكام والفرائض والسنن، فقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: 45.) ، تبين خُلقا، لأن ذلك يتعلق بأسلوب الأداء (أقم الصلاة على الوجه المعهود)، كما توضح الرسالة الأخلاقية لأركان الإسلام بربط الصلاة بالتنفير عن الأفعال غير المرغوب فيها.

فليس أثر الصلاة مقصودا على غسل الأبدان ولكنها تقوم بمهمة أخرى إيجابية تكمن في تلك اللحظات الخصبة المباركة، تلك المرات الخمس المفروضة التي ينتزع الإنسان فيها نفسه كل يوم من دنياه المادية – دنيا الطين والحمأ المسنون- دنيا الصراع وتنازع البقاء- ليقف بين يدي الله لحظات خاشعة يخفّف بها من غلواء الحياة، وضغط الطين والمادة الكثيفة على الأرواح، إنها تقوم بتغذية الجانب الروحي في كيان الإنسان.

ففي الصلاة مناجاة الإنسان ربّه بالهداية إلى «الصراط المستقيم» والعون والمساعدة على الإتيان بكل عمل فيه خير وطاعة لله عز وجل، فهي شحنة روحية تنير قلب الإنسان وتشرح صدره، وتأخذ بيده من الأرض إلى السماء، وفي شأن هذا يقول الأستاذ النورسي: « **إنّها [الصلاة] دعوة صانع الأزل إلى سرادق حضوره خمس دعوات في اليوم والليلة لمناجاته التي هي في حكم المعراج. فمن شأنها أن يشتاقها كل قلب.. وفيها إدامة تصور عظمة الصانع في القلوب وتوجيه العقول إليها لتأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية، وامتثال النظام الرباني. والإنسان يحتاج إلى تلك الأدامة من حيث هو إنسان لأنّه مدنيّ بالطبع.. فيا ويلَ من تركها! و يا خسارة من تكاسل فيها! و يا جهالة من لم يعرف قيمتها! فسحقاً وبعداً وافّاً وتفّاً لنفسٍ مَن لم يستحسنها.**»ففي قول المصلي «إياك نعبد وإياك نستعين» « **يعرض عبوديته واستعانته تجاه ربوبية مولاه التي لا معين لها وتجاه ألوهيته التي لا شريك لها، وتجاه سلطنته التي لا وزير لها. فيركع إظهارا لعجزه وضعفه وفقره مع الكائنات جميعاً أمام كبريائه سبحانه التي لا منتهى لها، وأمام قدرته التي لا حدّ لها، وأمام عزته التي لا عجز فيه**»

كما أنّ الصوم شرعه الله لتقوية الروح،ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق في سجن جسده، ويتغلب على نزعات شهوته، إنّه يدعو ربه ليستجيب له سبحانه فيقول: لبيك

عبدي لبيك، وخصص النورسي لهذه الشعيرة العظيمة رسالة سماها رسالة رمضان، ويذكر **« أنّ أكثر الحكم المتمخضة عن صوم رمضان تتوجّه إلى إظهار ربوبية الحق تبارك وتعالى، كما تتوجّه إلى حياة الإنسان الاجتماعية والى حياته الشخصية، وتتوجه أيضاً إلى تربية النفس وتزكيتها، والى القيام بالشكر تجاه النِعَم الإلهية... وبهذه الصورة يصبح الصوم في حكم مفتاح للشكر من جهات شتى، ذلك الشكر الذي هو الوظيفة الحقيقية للإنسان.»**، ويزيد رحمه الله تفصيل الأهمية الأخلاقية للصوم بقوله: **« إنّ صوم رمضان يحوي من جهة تربية النفس البشرية حكماً عدة، إحداها هي:**

أن النفس بطبيعتها ترغب الانفلات من عقالها حرة طليقة، وتتلقى ذاتها هكذا. حتى أنها تطلب لنفسها ربوبية موهومة، وحركة طليقة كيفما تشاء، فهي لا تريد أن تفكر في كونها تنمو وتترعرع وتُربى بِنعم إلهية لا حد لها، وبخاصة إذا كانت صاحبة ثروة واقتدار في الدنيا، والغفلة تساندها وتعاونها. لذا تزدرد النعم الإلهية كالأنعام دون إذن ورخصة.»

ثم بين أن للصوم حكما كثيرة من حيث توجهه إلى تهذيب النفس الأمارة بالسوء، وتقويم أخلاقها وجعلها تتخلى عن تصرفاتها العشوائية، ذكر من هذه الحكم حكمة واحدة بقوله:» **أن النفس الإنسانية تنسى ذاتها بالغفلة، ولا ترى ما في ماهيتها من عجز غير محدود، ومن فقر لا يتناهى، ومن تقصيرات بالغة، بل لا تريد أن ترى هذه الأمور الكامنة في ماهيتها، فلا تفكر في غاية ضعفها ومدى تعرضها للزوال ومدى استهداف المصائب لها، كما تنسى كونها من لحم وعظم يتحللان ويفسدان بسرعة، فتتصرف واهمة كأن وجودها من فولاذ وأنها منزّهة عن الموت والزوال، وأنها خالدة أبدية، فتراها تنقضّ على الدنيا وترمي نفسها في أحضانها حاملة حرصاً شديداً وطمعاً هائلاً وترتبط بعلاقة حميمة ومحبة عارمة معها، وتشد قبضتها على كل ما هو لذيذ ومفيد، ومن ثم تنسى خالقها الذي يربيّها بكمال الشفقة والرأفة فتهوي في هاوية الأخلاق الرديئة ناسية عاقبة أمرها وعقبى حياتها وحياة أخراها.»**

فالإسلام حينما شرع هذه العبادات قرن أهدافها وغاياتها بالسمو الخلقي، فالعبادات وإن كانت تنطوي على علاقة مباشرة، مناجاة الله تعالى، إلاّ أنّ لها مردودا متميزا في حياة المجتمع الإنساني ،وهو حسن الخلق والإتيان بالعمل الخير لخدمة ونفع الآخرين، ومن ثمّ فإنّ روح العبادات أخلاقية في جوهرها، لأنّها أداة للواجبات الإلهية، وبما يسفر عنها من مظاهر السلوك، لهذا يعد النورسي «**الصراط المستقيم**» تلك المناجاة الإنسانية لربه في الصلاة، يعدما « **إن أيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية وانفعها واقصرها وأسلمها هي في الصراط المستقيم وفي الاستقامة**

« بمعنى أنّ " إهدنا الصراط المستقيم" دعاء جامع وعبودية واسعة ؛ كما أنّها إشارة إلى حجة في التوحيد والى درس في الحكمة وتعليم الأخلاق.»

كما يوضح لنا الأستاذ النورسي أنّه منذ زمن آدم عليه السلام،هناك تصارع في البشرية بين تيارين عظيمين، وكيف أنه كانت لأحدهما استمدادا غيبياً فوق المعتاد في ألوف من الحوادث، وإنجاز مطالبهم بذاتها، بإتباعهم الصراط المستقيم؟ وكيف نزل الغضب والمصائب السماوية بالتيار الآخر في مئات الحوادث؟ يقول النورسي: « **التيار الأول: هم أهل النبوة والصلاح والإيمان الذين نالوا النعمة وسعادة الدارين بسلوكهم الصراط المستقيم؛ فانسجمت بسلوكهم القويم أعمالهم وحركاتهم مع جمال الكون الحقيقي ونظامه وتناسقه وكماله؛ لذا نالوا ألطاف رب العالمين؛ وسعادة الدارين؛ وأصبحوا السبب في رفع الإنسان إلى مراتب الملائكة بل أرفع منها؛ وكسبوا وأكسبوا أهل الإيمان جنة معنوية حتى في الدنيا؛ مع سعادة خالدة في الآخرة.. كل ذلك بسر حقائق الإيمان .**

والتيار الثاني: هم الذين ضلوا عن سواء السبيل جاعلين بالإفراط والتفريط؛ العقل وسيلة عذاب وأداة لمّ الآلام؛ فأردوا البشرية في دركات سحيقة أضل من الأنعام، فاستحقوا الغضب الإلهي فنزلت بهم صفعات المصائب جزاء ظلمهم الذي ارتكبوه في الدنيا. زد على ذلك أنهم جعلوا بالضلالة التي هم فيها وبالعقل المرتبط مع الموجودات؛ الكون موضع أحزان وآلام ومأتماً عاماً؛ ومذبحة لذوى حياة؛ يتقلبون في دوامات الزوال والفراق، ومسلخة قذرة ضربت الفوضى أطنابها في الآفاق.لذا انحصرت روح الضال ووجدانه بجهنم معنوية في الدنيا، وأصبح أهلاً لعقاب اليم في الآخرة».

ولعل هذا ما نلاحظه في الحضارة الغربية اليوم، ومن سلك دربهم ،التيّ أرهقت الإنسان روحيا وخلقيا، وكيف حددت دساتير وأسس تسلكها متصورة نهاية مشرقة أو سعيدة للإنسان، أو أن تضع حدا لآلامه ومعاناته، غير أنهم ضلوا عن سواء السبيل، بإسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية، وبهذا تكون سببا لمسخ الإنسان معنويا « **ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سعادة مموهة زائفة، وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علماً أن السعادة تكون سعادة عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.»**.

ولنستمع إلى النورسي وهو يقدم النظرة المستقبلية للجيل القادم ـ ولعله يقصد هذا العصر ـ وكيف يعالج المسألة الخلقية بمنهج استبصاري ، ما يسمى اليوم بالدراسات الاستراتيجية أو الاستشرافية والمستقبلية، بعدما نظر نظرة متأنيّة لأوضاع يومه من عدم المبالاة في الحياة الاجتماعية وفي الدين... فخاطب ما كان يتوقعه من حال الأمة بعد خمسين سنة قادمة، يقول رحمه الله: « ... **فالأوضاع الحاضرة ستنعكس على الجيل الآتي لهذه الأمة ـ البطلة المتدينة الغيورة على شرفها ـ بعد خمسين سنة. ولا يخفى عليكم ما ستؤول إليه السجايا الدينية والأخلاقية الاجتماعية.**»

كما عبر الأستاذ النورسي على هذه الأوضاع الأخلاقية للأمة بقوله: « **فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعها إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح.. وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملّة يائسة خاوية المعنى**». ولنستمع إلى مناداته « **يا إخوتي ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاما**».

كتب النورسي رحمه الله هذه الكلمات - ملحق أمير داغ- وهو يعاني آلام الظلم بحبسه في السجن الانفرادي بصورة غير رسمية، نعم بين جدران الظلم والظلام، راض بالعدالة الإلهية وناظر بنور رباني، يبحث عن أسرار القرآن الكريم، ينظر بالبصيرة حالة الأمة في الحال والمآل... من أجل تكوين جيل قرآني يحقق للأمة الإسلامية آمالها، ويذهب عنها آلامها لتسعد في الأولى والآخرة، نعم في السجن ينظر في حال الأمة، وكأن حال الأمة الإسلامية في سجن أو بالأحرى سجنت نفسها بنفسها، وتحتاج لمن يخلصها وينور لها الطريق.

إنها قوة الفكر وميزان الدرك وحصافة الرأي ، فالأستاذ النورسي لا يفكّر بنفسه وبعيشته الفردية المسجونة، أو حتى بحياته الشخصية قط، وإنما يفكّر في أمته، بل في العالم كله، ويهمّه ما يهمّهم، ويؤرّقه ما يؤرّقهم، إنّه يفكر في الخير لأمته وللعالم أجمع، ويضمر لهم الخير، ويتمنى لهم الخير، ويعمل لإيصال الخير إليهم، وإحاطة الخير بهم،وكيف لا ينظر لحال الأمة الإسلامية و هو القائل عندما كان يُسأل عمّا يعانيه من آلام نتيجة المصائب والهزائم التي لحقت بالدولة العثمانية:»**إنني أستطيع أن أتحمل كل آلامي الشخصية، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني. إنني أشعر بأنّ الطعنات التي وجّهت إلى العالم الإسلامي وجهت إلى قلبي أولاً، ولهذا تروني مسحوق الفؤاد، ولكني أرى نوراً سينسينا هذه الأيام الحالكة بإذن الله**».

إنّ الحكيم لـما يشخص الداء يقدم الدواء، وهذا ما فعله حكيمنا، حضر الدواء وشخص داء الأمّة، وقدم لها من النصائح ما تسعد بتطبيقها في حياتها،ومن الأفكار والحلول ماتستطيع أن تحل بها مشكلاتها ومعضلاتها،وكلها تتصف بالقوة العلمية الرصينة المتجذرة، لأن منبع الدواء كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يقول رحمه الله: «... **لأن رسائل النور وطلابها الحقيقيين يؤدون خدمة جليلة للجيل المقبل الذي سيأتي بعد خمسين سنة ويسعون لإنقاذهم من ورطة جسيمة، ويجدّون في إنقاذ هذه البلاد والأمة من خطر عظيم.**»

فرسائل النّور هي الدواء الشافي للمرض الخبيث الذي ضرب الأمة في حاضر الحكيم النورسي وبعد خمسين سنة ـ حالنا اليوم ـ، « **لذا فإنّ إنقاذ قسم من هذا الجيل من ذلك التردي المريع بتزويده بالحقائق التي تحتويها رسائل النور تعد أفضل خدمة لهذه الأمة ولهذا الوطن. فنحن لا نخاطب إنسان هذا الزمان بل نفكر بإنسان ذلك الزمان.**»

فهلا أصغى المريض للحكيم وشرب من رسائله عسلا مصفى يشفيه ويسكن آلامه ويحقق آماله؟

فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور هو الأساس لمعالجة أدواء وأسقام الأمة والإنسانية عامة، « **فكيف إذن يعد جرماً أو ذنباً قراءة رسائل النور وهي مؤلفات تعد في الذروة من ناحية تدريسها وتلقينها للأخلاق الفاضلة والحقائق الإيمانية؟**».

2- الخلافة في الأرض ماهية جوهرها الأخلاق

حدد الأستاذ النورسي الرسالة الوجودية الأخلاقية للإنسان، فيما ما أخبر به عن ماهية الإنسان وقصة خلقه بوظيفة العبادة، كما يبني النورسي المسؤولية الأخلاقية الجوهرية الضامة لمسؤولياته الأخلاقية على فكرة الخلافة التي تنبثق من غايّة وجوده لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (سورة البقرة:الآية 30-33)، ولقوله أيضا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (سورة فاطر،الآية:39).

يقف الأستاذ النورسي عند آي سورة البقرة ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ موضحا أنّ هذه الآيات في تعداد النّعم العظام ،والمنزلة العظمى التي منحها الله تعالى للإنسان، يقول النورسي: «**لما كانت هذه الآيات في تعداد النعم العظام، وأشارت الأولى إلى أعظمها – من كون البشر نتيجة للخلقة وكون جميع ما في الأرض مسخراً له يتصرف فيها على ما يشاء – أشارت هذه إلى أن البشر خليفة الأرض وحاكمها.**» كما أن«**إيثار (جاعل) على «خالق» إشارة إلى أنّ مدار الشبهة والاستفسار الجعل.والتخصيص لعمارة الأرض لا الخلق والإيجاد، لأن الوجود خير محض والخلق فعله الذاتيّ لا يُسأل عنه...وأنّ (خليفة) إشارة إلى أنّه قد وجد قبل تَهيئ الأرض لشرائط حياة الإنسان مخلوقٌ مُدْرِك ساعدت شرائطَ حياته الأدوارُ الأوّليةُ للأرض وهذا هو الأوفق لقضية الحكمة. والمشهور أنّ ذلك المخلوق المُدْرِك كان نوعا من الجن فأفسدوا فاستُخلفوا بالإِنسان.**».

ويزيد رحمه الله تفصيل أمر خلافة الإنسان ويربطه بالأخلاق، لما يوضح قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فيقول إنّ « **التعبير بـ (مَنْ) إشارة إلى أنّه لا يعنيهم شخصية البشر وإنّما يثقل عليهم عصيان مخلوق لله تعالى. وأنّ إيراد (يفسد) بدل «يعصي» إشارة إلى أنّ العصيان ينجر إلى فساد نظام العالم.** «

ولذلك فإنّ الله « **وهب لهذا الإنسان استعداداً فطرياً سامياً يمكّنه من حمل الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، أي خَلقَه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة وشؤونه الكلية وتجلياته المطلقة، بموازينه الجزئية وبمهاراته الضئيلة.. والذي بَرأه بشكل ألطف المخلوقات وأعجزها وأضعفها. فسخر له جميعَها من نبات وحيوان، حتّى نصبه مشرفاً ومنظماً ومتدخلاً في أنماط تسبيحاتها وعباداتها.. والذي جعله نموذجاً – بمقاييس مصغّرة – للإجراءات الإلهية في الكون، ودلاّلاً لإعلان الربوبية المنـزهة – فعلاً وقولاً – على الكائنات، حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعاً إيّاه إلى مرتبة الخلافة...**»، وهذا لسر يعلمه الله سبحانه وتعالى « **وأنّ في البشر لسراً أهّله للخلافة غفلت عنه الملائكة وقد علمه خالقه...**».

مـمّا سبق يتجلى لنا أن الأستاذ النورسي يحدد ماهية الإنسان في كونه خليفة في الأرض، وفق ما قرره الله سبحانه وتعالى وبيّنه في آيه. ومن تمّ فالصلة بين ماهية الإنسان– الخلافة– والأخلاق واضحة في إطار الوظائف والمهام المنوط بالإنسان إنجازها، وفي هذا الصدد يقول النورسي: « **إن خلافة الله تعالى في أرضه لإجراء أحكامه وتطبيق قوانينه**».

وعلى هذا الأساس تكون رسالة الإنسان في نطاق الخلافة، هي أن يقوم بحركة التعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه، بحيث يكون في كل عمل مادي أو معنوي متّجها إلى الله تعالى، يستجلي مراده ويتحراه، ويبتغي مرضاته ويجد في الفوز بها.بمعنى أنّ الخلافة هي العمل بأمر الله تعالى وتحكيم شريعته وتطبيق أوامره ونواهيه ،التي تجتمع كلها عند تحقيق مصلحة الإنسان الشاملة عبر تفاعله مع الكون، بما يؤدي إلى الترقي الروحي والمادي بمباشرة الكون.

فمضمون الخلافة عند النورسي لن يتحقق إلاّ إذا كان الإنسان في خُلقه على صورة التكريم التي أنعم الله بها عليه، فيسمو إلى مصاف الأولياء.

وبالتالي لا يمكن فهم المسألة الأخلاقية إلاّ في إطار الفهم الحقيقي للاستخلاف وممارسته في الأرض، وربطها بالعمل الصالح، وبالنفع والعمران الإنساني، وترقية الذات الإنسانية من خلال نظام قائم يعمل إزاء البيئة الكونية، فالله كلّف الإنسان بعمارة الأرض وإسكانها، مع إقامة حضارة عمرانية وهذا كلّه وفق أوامر الله ونواهيه، وحينها يكون معنى الخلافة هو التعمير في الأرض، ويكون التّحضر هو ممارسة الإنسان التعمير في الأرض أيضا، فينتج الجمع بين الطرفين ،ويفضي ذلك إلى مفهوم التحضر في الميزان القرآني يقوم على مفهوم الخلافة نفسه، لذلك نجد الأستاذ النورسي يرسم للأمة الإسلامية صورة من الصور الأخلاقية باعتبارها أمة « في الأرض خليفة» ويلّح على أن تكون «الخلافة» تجسيد عملي لهذه المسؤوليّة الأخلاقية، بقوله في الخطبة الشامية: « **ولو أنّنا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً. بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام**»، فلنعمل على تبليغ صوت الإسلام وعدله،وهتاق القرآن وقسطه،وإسعاد العالم بالسجايا والخصال الحميدة التي أمر بها الله تعالى ، بعد تحقيقها على أرض الواقع بأخلاقنا.

رابعا:الإيمان والتخلق بالأخلاق الإلهية أساس تطبيع صورة الروح الإنسانية بماهيتها

إنّ النّماذج المختلفة لعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقة الإنسان بالمجتمع هي من دلائل الإيمان، حيث أن هناك علاقة وثيقة بين الإيمان والأخلاق، فبإيمان الإنسان بوحدانية الله تعالى يدفع الذات الإنسانية إلى حب الخير وفعله وكراهية الشر وتجنبه، ومن ثمّ فإنّ مقتضى الإيمان بالله أن يكون المؤمن ذا خلق محمود والذي هو جوهر العمل الأخلاقي. يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « **الدين حسن الخلق**»، ويقول أيضا: « **إن أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا**».

وعلى هذا يؤكد الأستاذ النورسي على أهمية الأخلاق وارتباطها بالإيمان، فيرى أن وجود الإنسان، ما هو إلاّ رشحة من رشحات الأسماء الحسنى، خلقا ورعاية وتكريما، يؤكد هذا بقوله: «**إنّ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة ـ التي يأمر بها الله سبحانه ـ وأن يعلم الإنسان عجزَه فيلتجىء إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى**».

فالإنسان العابد هو الذي يسعى إلى التخلق بصفات الله تعالى، فيكسب الإيمان التحقيقي، يقول النورسي: « **إنّ الكون العظيم يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر في أثناء قراءتي لخلاصة الخلاصة، ولكن لأنّ لسان كل نوع من الأنواع واسع جداً، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيراً كي يذعن بالأسماء الإلهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر إلى الحقيقة الإنسانية، في ذلك المقياس الجامع، في تلك الخريطة المصغرة، وفي ذلك النموذج الصادق، وفي ذلك الميزان الصغير، وفي ذلك الشعور بالأنانية، فانه يصدق تلك الأسماء والصفات بإيمان واطمئنان ووجدان جازم شهودي وأذعاني وبسهولة ويسر وبمرآته الحاضرة التي بقربه دونما حاجة إلى سياحة فكرية، فيكسب الإيمان التحقيقي ويدرك المعنى الحقيقي للحديث الشريف: (إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن) .لأنّ المراد من الصورة، السيرة والأخلاق والصفات.حيث أنّ الصورة محالة بحقه تعالى.**

فالنورسي يرى في الإنسان مرآة عاكسة لأسماء الله تعالى، فترى أن أسماء الله تعالى: القدير، الحكيم، البصير، العليم، تتجلى في خلق الإنسان على هذه الطبيعة العجيبة، وتتجلى في سلوك الإنسان الخليفة في عمارته للأرض على أسس الخطاب الإلهي، فيثير إلى كون الإنسان مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه... وأنّ في الإنسان صورة «الرحمن» إشارة إلى وضوح دلالته على اسم «الرحمن» وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به.

فالمقصود بأخلاق الله عز وجل، صفاته وأسماؤه الحسنى، وليس المقصود أن نتسمى بتلك الأسماء والصفات، وإنما المطلوب ممن هداه إلى التقوى وحسن الخلق أن يتخلق بالمعاني الخُلقية التي تدل عليها أسماء الله سبحانه وصفاته،كالعفو والرحمة والمغفرة والصفح والحمد والشكر والحكم والحلم والصبروالبر...

فإذ كان الله سبحانه وتعالى قد تعرف إلى خلقه بأسماء وصفات تليق بكماله وجلاله، فهي صفات تنطوي على قيم خلقية، مطلوبة لكي نتمثلها فكرا وسلوكا بحكم العقيدة الإيمانية.

كما أنّ التخلق بصفات الله تعالى، لا يعني أن المخلوق أصبح يتخلق مع الخالق جلّ جلاله بصفة واحدة ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(سورة الشورى.الآية11)، وإنّما المقصود أن يحب المؤمن صفات الله تعالى التي وصف بها ذاته تعالى، وأن يدرك القيم العليا التي تدعو إليها هذه الأسماء والصفات، وأن يستشعر مغزى دعوة الله تعالى عباده أن يتصفوا بها وأن يتخلقوا بها، فالله تعالى هو الشكور ويحب الشاكرين، وهو الصبور ويحب الصابرين، وهو الرحيم والحليم والحميد... ويحب الله تعالى في عباده صفات الرحمة والحلم والحمد...

لذلك نجد الأستاذ النورسي يفرق بين مفهوم «**التخلق بأخلاق الله**» ،ويبين مفهوم «**التشبه بالله**» الذي هو غاية الفكر الفلسفي الأخلاقي، فإذا كان الوجه الأول منشأه العبوديّة الخالصة لله، أي أن «أنا»: يعرف أنّه عبد الله، ومطيع لـمعبوده...، فإنّ الوجه الثاني تنظر إلى «أنا» بالمعنى الإسمي، أي تقول : **إنّ «أنا» بدل على نفسه بنفسه... وهكذا اسندوا مسلكهم إلى أسس فاسدة كثيرة وبنوها على تلك الأسس المنهارة الواهية، حتى اعتقدوا بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي «التشبه بالواجب».. فسدوا سبيل العبودية إلى الله.** بينما الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكما ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، ولأجل توضيح هذه الحقيقة قال رحمه الله:» **من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية، التخلق بأخلاق الله. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم.**

فأين هذه القاعدة الجليلة من قول الفلسفة:» تشبهوا بالواجب»! التي تقررها غايةً قصوى للإنسانية!

أين ماهية الإنسان التي عجنت بالعجز والضعف والفقر والحاجة غير المحدودة من ماهية واجب الوجود، وهو الله القدير القوي الغني المتعال!!».

وبهذا المعنى تعد الاعتبارات الخُلقية عند النورسي من بين الاعتبارات الأساس المرتبطة بالإيمان، وتعتمد جوهريا على أصوله ومقوماته، فالإيمان إن كان حيا نابضا في كيّان الإنسان، حدد له شرائعه وقوانينه، ورسم له آدابه وأخلاقه، فالإيمان يدفع الإنسان بشعور أعمق إلى

إدراك مكانته وغاية وجوده، ويسمو به إيمانه إلى حسن تقدير قيمة حياته في العبودية لله، ومن ثم فإنّ جوهر تطبيع صورة الروح الإنسانية بماهيتها « التخلق بالأخلاق الإلهية».

خاتمة

من هذا البحث الموجز، يمكننا القول إن نظرة النورسي للأخلاق نظرة كونية قرآنية، أساسها البعد الكوني للإنسان والغاية التعبدية التي خلق من اجلها.

فالمادة والروح يمثلان وحدة واحدة في كيان الإنسان، ولو مال هذا القوام التركيبي الوحدوي إلى أحد الطرفين على حساب الآخر، لسقط الإنسان في أحد الوضعين المرذولين، فإمّا روحانيّة مغرقة، يضطهد فيها الجسم فلا ينزع إلى عمل تعميري ولا يقوى عليه، وإمّا ماديّة مغرقة تكلّ بها الروح عن أن تتصل بربّها لتستلهم هذه، وتصل الإنسان به على حبل من العبادة، وفي كلا الوضعين يتعطل الدور المنوط بالإنسان في الحياة.

فتركيب الإنسان المادي والروحي في نظر النورسي، له دلالته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة، وفي بناء الأخلاق، ولا يكون ذلك إلا بالتوفيق بين مطالب الروح والمادة والتوسط بين جواذبهما، الذي هو نوع من الكمال المنشود الموضوع لهذا الإنسان فـ « **ذروة الكمال الإنساني** - كما يقول النورسي- إنما هو في الإيمان والمعرفة القدسية السامية المفصلة والمبرهنة النابعة من الإيمان التحقيقي».

كما حدد النورسي نظاما أخلاقيا للإنسان يوضح بعده التركيبي متمثلا في الخلافة والعبادة، حددهما كإطار أخلاقي يحقق للإنسان إنسانيته على أساس تصوره للكون والحقائق الموجودة فيه، ثم على أساس حقيقة تكوين وصلة الحقائق الداخلة في الطبيعة الإنسانية؛ فهو تصور شامل متوازن منظور فيه إلى غاية الوجود، وطبيعة الكون ومقومات الطبيعة الإنسانية.

وعليه فالأخلاق في نظر النورسي تمثل ظاهرة كونية، لأنها تستمد حقيقتها من كونيّتها، كما أن الإنسان ينـزع إلى اعتبار الأخلاق أخلاقا كونيّة، فالإنسان لا يلتزم بأخلاق يؤمن بأنها ستتغير، أو أنّها أخلاق نسبية لهذا الفرد دون الآخر، فكونيّة الإنسان من حيث هو خليفة الله في الأرض، العابد له، تلازمها كونيّة الأخلاق، وهذه الكونيّة تشمل الإنسان في كل زمان ومكان. فالكونيّة عنصر أساسي في فكر النورسي، فكونيّة الدين الإسلامي تلزم عنها كونيّة الأحكام الشرعية، وكونيّة الأخلاق، وإلزاميتها بكل الإنسانيّة منذ أن خلق الله الكون إلى يوم القيامة.

كما أن البناء الإيماني في الإنسان بأنه مخلوق من قبل خالق قدير على كل شيء: هو تأكيد علاقة الإنسان بالخالق سبحانه، والتعريف بمسؤولياته الأخلاقية في العمل بأمر الله تعالى، والسعي لتحكيم منهج الله في حياته والتأكيد على عناصر الضبط الإيماني بأنّه «عبد الله» وأنّه «خليفته في الأرض» في توجيه الأخلاق وإدراك غاياته الإنسانية... أجل! إن الإيمان يقيم دائماً في القلب والعقل حارساً معنوياً أمينا، لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية قال لها ذلك الحارس الرادع: محظور.. ممنوع.. فيطردها ويهزمها.

فالأخلاق في فكر النورسي تنبع من الإيمان الخالص الذي يربط الصلة الأخلاقية بين العبد وربّه. كما أنها تطبيع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، بينما «**الولع بالصور فإنه يفسد الأخلاق ويهدمها كليا، ويؤدي إلى انحطاط الروح وتردّيها**». فالعمل على تطبيع صورة الروح الإنسانية بماهيتها والسعي لتحكيم منهج الله ،وتحديد مجالات النشاط الإنساني في إطار خصائص كينونة الإسلام ومقوماته، هو الضمان الأمثل لحماية الروح الإنسانية من الانحراف الخلقي.

قائمة المراجع :

1. أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط د ت، مادة «خلق»
2. الزمخشري: أساس البلاغة،دار الكتاب العربي،القاهرة ،مصر،دت ،مادة خلق.
3. الراغب الأصفهاني : معجم مفردات القرآن الكريم، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د.ت، مادة «خلق».
4. ابن منظور: لسان العرب، درلسان العرب، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، مادة «خلق».
5. الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: رشيد عبد الرحمن العبيدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، مصر،1975، ج7،ص:25
6. النورسي،بديع الزمان: الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر، استانبول، تركيا، ط1، 1413هـ/ 1992م، ص: 418.
7. النورسي: إشارات الإعجاز، ترجمة: إحسان قاسم، شركة سوزلر للنشر- استانبول، تركيا، ط1، 1413هـ/ 1992م، ص: 149.
8. النورسي: اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم، شركة سوزلر للنشر،استانبول، تركيا، ط1، 1413هـ / 1992م، ص: 509.
9. النورسي: الكلمات، المرجع السابق، ص: 139.
10. المرجع نفسه، ص: 42.
11. النورسي: الملاحق، ملحق أميرداغ، ترجمة:إحسان قاسم ،ص: 278.
12. فريد الأنصاري:مفاتح النور، المرجع السابق،ص:318
13. سعيد النورسي: الكلمات، المرجع السابق، ص: 188.
14. المرجع نفسه، ص: 97.
15. سعيد النورسي: إشارات الإعجاز، ص: 149.
16. سعيد النورسي: اللمعات، ص: 127.
17. ينظرسعيد النورسي: الكلمات، المرجع السابق، ص:418و204و828
18. النورسي: الكلمات، المرجع السابق، ص: 150.
19. النورسي: الشعاعات، ص: 12.
20. سعيد النورسي: إشارات الإعجاز، المرجع السابق، ص: 27.
21. النورسي: المكتوبات، ص: 473.

22. النورسي: صقيل الإسلام، الخطبة الشامية، ص: 494.

23. سعيد النورسي: الكلمات، ص: 42. والشعاعات، ص: 278.

24. النورسي: الشعاعات، ص: 268.

25. المرجع نفسه 101